الماء العذب

قصة

بقلم غانم الدباغ

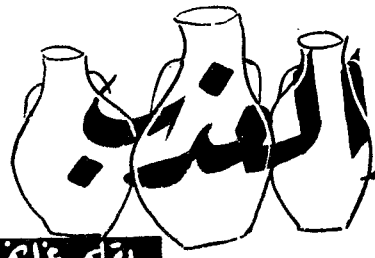

قرف .. قرف من كل شيء .. يتبجح في نفسه ، منذ ان استيقظ صباح اليوم .. وخور .. خور كاسح اشبه بمن تأكله الحمى.. فهي تعصف بمثل لقنها ايام دراسته ، وطحنتها حياته التي تشهد اندحار قيمه الكبيرة ببطء .. فيموت فيه حس بدأ يتفقده زمنا .

وكما يشتهي تفريجا عما يكبت ، في وخزات الالم الذي ينهش من نهاره الطويل كأنه الابد في القرية .. فقد كان يود لو يلقى اناسا كالذين يعرفهم في المدينة .. اناسا آخرين غير (عباس) فراش المدرسة ، وغير (شيخ حميد) مختار القرية ، أو (فاطمة) مؤجرة سكنه ، أو صبية المدرسة ذوي اللون الترابي .. اناسا .. غير هؤلاء كلهم ، ينتشرون في البلد بعد المساء ، يلبسون الاناقة ، ويخطرون في شوارعها ، يلبثون بعيدين عن دورهم حتى هزيع الليل الاخير .. واضجره التحديق في سقف الغرفة يعد أخشابه . عشرون خشبة لونها سخام الدخان المغبر . عشرون خشبة احداها معوجة في وسطها يبرز منها نتوء علق فيه كيس الطحين بعيدا عن الجرذان .. وحين تململ في مقعده تناول دخينة اشعلها من عقب المتلاشية بيده مبددا مع دخانها شعوره المتزايد بالقرف والذي كان ينساب متمعكا في امعائه .. فيردد بصره في الغرفة باحثا عن الهية اخرى تبعده عن اخشاب السقف ، وترسم خطا جديدا لنهاية يومه الافل او يفر به من رتابته المضنية .. تعلم من الصباح حتى الظهيرة ثم طعام يطهوه بنفسه .. جلسة مملة بعد المساء في ندوة القرية ، بحث عن فطور الغد ، نوم من العاشرة ، فصباح آخر ..تعلم، غداء !! واليوم.. نفد الماء العذب وعباس ما يزال يبحث عن القليل منه للعشاء ، ولا يدري ايجد شيئا أم يخيب في بحثه ؟!

انه يستطيع ، يستطيع ان يصرخ بوجهه ، غير ان التزمت لا يربط علاقته بعباس ، واصطناع الوقار ليس في اصيل طبعه .. ولكن نفاد الماء ، الماء العذب كان يثير فيه صخبا يضج مع اعصابه ، يطفو على وجهه ، يكتسح انطلاقه وبشاشة خلقه .

وتساءل : أيستطيع ان يصرخ في وجه المختار الذي يكنيه بدجال القرية !؟ كما حاول مرة ان يفعل ؟! لن يستطيع لان لباقة الشيخ المصنوعة تمنعه ، ومراوغته التي ترسمها ابتسامة ماكرة ، ما كره شيئا اكثر منها الا صاحبها ، حين يردد بضع كلمات تعلمها من اسواق المدينة ، ومكاتب موظفي الناحية ، وكأنه يصفع بها وجهه :

ـ افندي ! انا برسم الخدمة ! اطلب ونحن ننفذ .. خادمك ابني سيجلب لك الماء غدا من النهر !

والى غروب امس لم يزود بالماء ، واكتفى بماء البئر . ماذا لو صرخ فيه :

ـ انت محتال ! انت مخادع ! تسرف في المواعيد ولا تنفذها . عيب عليك . انا معلم اولادك . انا موظف كالباقين . انا .. انا ..

ستحملق بوجهه عشرات العيون ، ويهم بعضهم بالرد عليه ، ويهمس اخرون وهم يلوون وجوههم عنه :

ـ أهه ! صقيع ! أهو مفوض شرطة !؟ أهو مدير ناحية !؟ حتى ننفذ رغباته بالاكراه .. يريد ماء حلوا ..! لماذا لا يشرب مثلنا من ماء البئر ؟!

وقد يشكوه المختار ، اذا صرخ هكذا .. الى مدير الناحية .. فيطلب هذا نقله اداريا الى قرية نائية في الجبال .. يسلك طريقها على ظهور البغال ... وقد لا يفعل .. بل يوفر له الماء كل اسبوع من النهر .. انه يخاف .. يخاف .. وسيختنق صراخه في حنجرته .. فيتمتم بحروف لا معنى لها .. او يهرف مبحوح الصوت بكلام مضطرب .. ثم يغذي خياله في الليل حلم مرعب .. كالذي رآه ليلة امس .. شخص ما ينحره .. شخص يرتدي الملابس البدوية .. يفصل رأسه عن جسده ، ثم يعلبه في صندوق من حديد .. ويمتص دمه المسفوك من رقبته .. وهذا المرتدي ثياب البدّو .. كان يشبه رجل القرية الكبير ذا الوجه الثعلبي .. الذي يخفي وراء بسمته ظلا آثما .. فيغطي بها طابع المراوغة حين يردد :

ـ افندي ! انت اطلب .. ونحن ننفذ .. اني برسم الخدمة !

وهذه الخدمة .. ليست الا الفاظا يتقن مطها دجال القرية الكبير .. ولكم تمنت احلامه .. نتيجة لنزوعه الملح الى السطوة كما يفهمها الريفيون ، ان يغدو مفوضا للشرطة او مديرا للناحية ..! ولو بعد سنين .. سنين اخرى وفي هذه القرية بالذات .. ليري هذا الدجال كيف يستطيع هو الذي كان معلما في قريته ان يقض مضجعه .. تحوطه ثلة من الشرطة الراكبين ..

وصرع خيالاته المحلقة ـ وقد قتلت في نفسه كثيرا من تفسيراته لسلوك الناس ـ يقينا ابهظه بما يشبه الندم ، فالذي ينعته في خاطره بالدجال الكبير ليس الا قنا تحدر من اجيال اذلها كر الاحقاب ، تحت أثقال قصمت ظهورها من اسياد تقاذفتهم من شرق وغرب .. فكبير القرية ، يرى فيه ـ هو الموظف الصغير ـ امتدادا لنقمة أزلية ، ولكنها في شخصه سليبة السلطان .. فما هو الا معلم للصبيان بيده سيف ، ولكنه من خشب ! ففي اهابه ضغينة دفينة ينفث بعضا من سمها فوق رأسه .. ولا يملك ان يذيق طعمها لمفوض الشرطة ، أو مدير الناحية .. فهو يقعى امامهما مستطار اللب .. وهو كما تفرضه طبيعة الاشياء هنا.. يترفع عن زيارته الا فيما يخص اولاده من شؤون الدراسة ..

واذا ما غادر (مجلس القرية) عشية العيد .. وانفرد بنفسه .. سيجد في ذاته صديقا كان يمقته في اعماقه .. سيجده في انطوائه ، عالمه الذي ما زال يتفقده .. فيغمض عينيه على صورة الشارع الجديد بالمدينة او المدرسة القريبة من دارهم .. هناك في الحي القديم .. مدرسته الاولى التي احتضنته صغيرا .. ليدرس هو فيها جيلا آخر .. وسيفخر كثيرا بهذا ويقول لطلابه انه كان مثلهم ... وقد تلقى دروسه

الاولى هنـا !..

او يجده مجالسا رفاقه الذين قضى معهم عطلة الصيف الفائت .. كانوا ايضا مثله .. حائرين .. قلقين .. يلون وجوههم البؤس .. قال له احدهم في رسالة بعثها قبل ايام ، وكأنه يعزيه عن بقائه في الريف « ان الضجر يقتلنا احيانا .. فلا يملأ فراغنا ، الا المقهى او الحانة .. وحتى السينما » حتى السينما هذه الدنيا الضخمة الى عالمه الصغير هنا، والتي تملأ فجوات كبيرة من تفاهة ايامهم يملونها في اكثر الاحيان .. كما قال في رسالته !

وبعيد عن خياله .. يعيد انه سيمل شيئا في المدينة ، حتى ميـاه الازقة الآسنة .. واذ يتطلع عبر الكوة نحو الطريق المؤدية الى الحقول.. يلمح كآبة الخريف تولي في هبات من النسائم الباردة ، تعلن قدوم الشتاء .. فموسم البذار انتهى ، والارض الجافة التي حرقتها الشمس يزداد عطشـا يوما بعد يوم .. والسماء تتبرقع بغيوم تشرين الخفيفة يدفعهـا اعصار من الغرب ، يحمل بقايا هشيم الموسم المبعثر ، ما تلبث ان تلفه دوامات تطارد خرقا ونفايات بالية تتكور فوق الروث المنشور وقـودا للشـتاء ..

ان اضطرامه المتكائف بالقرف يخفف وطأة مرأى نساء القرية ... منحنيات يقلبن الزبل .. او يضفن اليه ما يحملن من روث ندي .. الا ان ظمأه اليهن يشد على اعصابه ، ويبعث فيه لهاثا من الرغبة .. حـين تفرق عيناه في سيقانهن .. سيقان لم تصوحها شمس الريف القوية .. فتندفع اذ ذاك اعمق انتفاضات الحيوان فيه لتغذي مخيلته الكامنة في ليله المقبل ..

وتحتدم طاقته بهذا القرف .. يعاوده منحرفا الى ما يشبه المرض .. مرض يحوطه بزخم قاتل من ضجر .. من خور .. يلغ في دمائه المتدفقة على يوم يحسبه مربدا كسالف ايامه الاخر .. وما فيها من لون باهت ، وتربص دائم لغد مقفر تحتضر فيه آماله ، ويزيد من وقعه ما يأسره فيه العمل الرتيب من قيد وكونه منقادا الى احلامه هذه، فلا تعوز تصوراته ما يمكنها ان تهرب به من حاضره، لتنغمر في سويعات هانئة كان قضاها في حانة رخيصة بالمدينة ، انتهب بعدها ما غذى من لذات حسه الجسدي ، نهمه المترع بالحرمان .. فوق كتلة من لحم بليدة ، يغسل في اصباغ وجهها خبرات يده المنقادة ابدا الى جوع شهوته ، في شبق عارم ، ينحط فيه نبـل خبره عنه الناس .. يعذب فيه نوازع تخلق منه انسانا اخر ينسلخ عنه ليلا ويندمج فيه نهارا .. وتغذي تصوره هناءة اليوم الاول من كل شهر ينصرم ، طوال ايامه المقبلة .. لانها اهون سبيل الى ادراكه اليقظ بان يشتبك في صراع يغلظ له يمينا في باطنه ان يزيح عنه ارهاق شذوذه.. كما يبعده احيانا عن مألوف تطبعه هذا وجه (ترفة) ساقية الماء .. يبصره حدسه الى تطلع منها لا شك انه ميل عنيف يعرفه عن القرويات نحـو (الافنـدي) ..

واندلعت تنخر خبايا حذره وخوفه كغريب في مجتمع قبيلي ، رغبـة المتلهف الى معين في جسمها يندلق فيه نهـدان على حافة حب الماء ، وهي تصب قربتها .. فيمنعه عن مطارحتها والتلبث بمكمنه من الغرفة ، اشفاقه من صدها واكتفاؤه بما يغذي مستتـر رغبات الجنس فيـه ، تحديقه في منحنيات بدنها الملتف بجلبابها المصبوغ بالنيل .. ووسوسـة خلخالها ، وهي تدق الارض بقدميها الحافيتين .. يدغدغ ما فـي عروقه من خيبة محرقة يلهبها حرمانه الاسود ..

وحاول ان يقتل استغراقه المعذب .. فاكتسحه طوفان اخر لمجرى حياته التي لا ينضب فقرها من خلو الحس والمعنى اللذين يربطان وجوده في القرية طوال الشهور التي يقضيها من كل عام .. فاستدرج الـى ذاكرته ما اصاب من حواشي الحضارة التي يعيش قومه في بـؤرة زيفها ، فسد جوع غرائزه الصائمة .. وكم تمزق ألما لتفاهة ايامه تنسل من حياته كخيوط متهرئة بثوب بال ، وينصع اله شديدا في تربصه الدائم ليوم يحسبه كيوم خلاص من طوق يأسره الى كوخه المعتم ، وأكوام الروث الطرية ببول الماشية ، تفغم خياشيمه ، وتخزها بحرقة ..

واذ ازدادت عتمة الغرفة مما تعكسه ظلال الغيوم على الارض .. أيقن بأن احدا من اهل القرية ، لن يذهب غدا الى النهر .. فالجو ينذر بالمطر .. واذا امطرت فبشير بوفرة الماء العذب في (خبرة) القرية .. وقـد راحت كسف السحاب المبعثرة في السماء تتجمع وتندفع مع ريـح غربية يبشر نفحها بفيض غزير .. وهو حين يكتنز لنفسه املا ، بأن الجرة ستمتلىء بالماء العذب .. فعذابات رغباته الدفينة ستبقى كما هي تتلهب في امنياته .. غريقة.. في عدم لا يقضي أساه المذبوح ، سوى فراره الى مدينته .. مدينته الرابضة عبر التلال البعيدة وراء الافق الشرقي للقرية .. لتنقذه من ايامه التي يمسك بعضها ببعض في تثاؤب بطيء . ثم تدفع به مع نهاية كل شهر الى المدينة ينتهب من وريقات راتبه الزرق، وريقة يحشو بها سغب جسده الذي ما ان يسده حتى ينفتح على خلايا اشد من لياليه الخاوية هنا ، ومارد شبقه يصرخ في عروقه بعواء مخنوق.

بعـد حين .. سـيهبط المساء على اكواخ القرية .. وقد اوشـك الان ان يلفها بسكون اخرس يقطعه نباح الكلاب وثغاء الاغنام الراجعة .. وقد عاد عباس من بحثه الطويل عن الماء .. ينبئه بأن اهل (ترفـة) سيبعثون اليه بقربة ماء عذب ، تنقله هي الى سكنه .. واذ انفتل عباس راجعا ، قرفص هو في باحة الدار الضيقة ، امام برميل صدىء ، زرعه بشتلات من زهور الشتاء الفاقعة ، يثير التربة ويسقيها .. وبينما يداه تعملان بهدوء .. كانت اعماقه تنفعل بخاطرة جديدة .. ماذا لو ..! لو.. وخنقه ارتعاش مذهل .. هل يستطيع هو .. هو الذي يخاف .. يخاف وفي تراث ذهنه يتطاول عرف الاجيال عن القرية ، واساطير الشرف فيها .. وكيف تسد ثلمته بالدم المراق !

ورغم رعبه حين فكر بالاقدام .. فهمسات عباس في اذنه خلال ليـال طويلة عن عش الدعارة في القرية .. العش الذي لا يشرك فيه الغرباء .. واشاراته الخفية الى (ترفة) بأنها من اللاتي لا يتمنعن عن راغب

صدر حديثا عن دار الآداب

قناديل اشبيليه

مجموعة قصص رائعة للقصاص السـوري المعـروف

الدكـتور عبد السلام العجيلي

قصص انسانية عميقة ذات جو سـحري عجيـب

ثمن النسخة ١٥٠ قرشا لبنانيـا او ما يعـادلهـا

تطلب من دار الآداب ـ بيروت ص. ب. ٤١٢٣

اذا بذل ..! كل ذلك اضفى الى سعاره المحتدم .. رصيدا يستحث لجاجته نحو غاية ظلت مقبورة في ظلال غامقة من شعوره ..

ومع انسدال عتمة المساء .. دفعت (ترفة) باب الدار الموارب قليلا .. واقبلت تتأود في حملها متسائلة :

ـ اين اصب الماء !؟ ماء حلو من عندنا !!

وقهر خاطره الجديد .. خاطره الذي بدا الان واعيا .. خدر سرى في رجليه حين هم بالقيام .. فقد كان ما تمثل له ، وهي تقف قبالته ، هو اشد مما يعتريه كل يوم ، حين تأتيه بماء البئر .. ولكنه مع ذلك لم يتمالك امساكه .. ففي لحظته هذه بدا يعتمل فيه اهاب المسلم جسمه لمبضع الجراح يشرحه .. غير ان ما سنح له .. ظل ابعد بكثير عن الالم .. كان الى الروع اللذيذ اقرب ..

ـ هنـاك !

واشار الى غرفته التي داهمتها ظلمة الاصيل .. ومن مكانه رآها .. رآها تنطرح بثقلها الى الوراء .. على ارضية الغرفة ، وهي تعالج فـك الحبال المربوطة الى ظهرها بالقربة .. بينما انهمكت يدها الاخرى تلملم اطراف ثوبها حول ساقيها وتطوي اسفله تحت قدميها . . وانتظر .. انتظر حتى حلت الرباط الذي يشد فم القربة وادنته الى الجرة المستندة الى زاوية الغرفة ..

لم ترع حين سد بظله الباب .. ولم يخاطبها هو بشيء .. لان الاشفاق كان ما يزال يكتنفه .. وتذكر.. تذكر يوما بعيدا.. يوما من ايام مراهقته .. كانت اول تجربة له .. وهذه الرعشة السارية من اخمص قدميه .. تواكب خطاه المتقدمة بانخذال نحو (ترفة) .. هي اول ما استعر فيه حين ولج غرفة البغي حينذاك ..

واستمرت تصب .. وعيناها تختلسان النظر في حذر .. وتنقلهمـا بينه وبين الماء المنسرب من القربة ..

ـ در دق .. در دق .. در دق .. والروع اللذيذ يهدر في باطنه كفيض غزير ، يمتد حتى نخاع عظامه المتصلبة .. ألمـه العـارم يزيد من خوفه الشـاوي مع خوالجـه الاخرى .. وكل عضلة فيه تنتفض ، وتنشر حول عينيه غشاوة دكنـاء ..

واذ سكنت بين ذراعيه ، هشة ، صغيرة ، تنز من اطرافها حبـات العرق بغزارة ، ولانت لاختلاج قبضتيه يعتصرانها ، ويتشبثان بمخابئها الحـارة ، احس فجأة بأن القربة موطن جميل للحياة ، قد يستطيبه بعد اليوم ، وبأن قلبه سيألف دجالها الكبير .. وسيلين هو من جانبه له .. ولم يعد في نيته الصراخ بوجهه .. او بوجه عباس !!.

وازدادت حواسه تفتحا وانبعاجا .. حين نفذت الى انفه ذرات الغبار الذي تثيره الاغنام في طريق عودتها ، واختلطت مع عبق الروث يفوح من ثيابها .. كما انداحت في ظلمة بعيدة .. لذاذات المدينة الزائفة ، ورغبات المستقبل ثم غامت . وغامت في اخدود عميق انطوى مع انفاسه المبهورة .. واصبح جسم (ترفة) هو عالمه الكبير .. ووجوده الذي كان يرتعش في خيالـه ..

وحين هوت من يدها القربة .. لاطمت الجرة التي تدحرجت والمـاء يتبدد من فوهتها مقرقرا .. تمتمت ، وفمها يختلج بين شفتيه :

ـ اسمع ! المـاء الحـلو !.. راح ..

لم يجبها .. لانه ادرك حينئذ فقط .. انه كان يغرق في الماء العذب .

الموصـل — **غانم الدبـاغ**

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

✶

الادارة

شارع سوريا ـ رأس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

✶

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخـارج : جنيهان استرلينيان

او ٥ دولارات

في اميركـا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

✶

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

✶

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣